آداب الصلاة

نتابع فى هذا العدد نشر الدروس الدينية التى يلقيها فضيلة الشيخ سليمان المدنى على طلبته ومريديه والتى يتناول فيها فضيلته مختلف المواضيع التى تتعلق بالجوانب الحياتيه والعلمية والاجتماعية والفكرية للانسان المسلم والهادفة الى تبصيره بأمور دينه وزيادة معرفته ومداركه ..

وفى هذا العدد ننشر الدرس الخامس من دروس فضيلة الشيخ سليمان المدنى ويتناول فيه فضيلته آداب الصلاة .

التحرير .

قلنا ان حياة الصلاة انما تستقيم بست جمل ، الجملة الأولى قلنا انها حضور القلب والحقيقة أن القلب لا يحضر الا بتوجه الهم لانه مجهول على الانصراف الى ما كانت الهمة متجهة اليه فلا يمكن احضار القلب الا بأن تكون الصلاة هى هم الانسان ولا شك ان الصلاة لا تكون همه الا اذا كانت الغاية المقصودة المتوخاة لا تتحصل الا بها . فاذا كان غرضه هو الآخرة وحصل عنده الاعتقاد بأن الصلاة هى الوسيلة الى حصول هذا الغرض تتجه همته الى الصلاة فينصرف القلب اليها . أما لو كانت همته متجهة الى غرض آخر فانه لا يمكن ان يحضر قلبه فى الصلاة ، بل لابد وان ينصرف الذهن الى ذلك الغرض الذى تعلقت به همة الانسان وعندئذ اذا كان الانسان لم يستحوذ عليه هذا الغرض بكليته يبقى على فترات متقطعة بسبب جهاده لنفسه تارة يحضر قلبه فى الصلاة وأخرى ينصرف ومثله مثل ذلك الرجل الذى أراد ان يخلو بنفسه ليفكر فى عظيم أموره فخرج من البلد حتى لا تشغله ضوضاء الحركة ولا أصوات الناس ولا مطالب العيال عما يريد ان يفكر فيه واتجه الى البادية فوصل الى شجرة وارفة وأراد ان يستقر فى ظلها ليفكر فى عظيم شئونه . وطبعا الشجرة التى تكون وارفة الظلال فى البادية تكون مركزا للعصافير والطيور فكلما أراد الرجل ان يفكر شغلته أصوات العصافير فيحمل خشبة يضرب بها تلك الشجرة لتطير العصافير فيجلس وما ان يبتدىء فى التفكير فى شئونه حتى تعود العصافير وهكذا .. بطبيعة الحال شخص عن غير شخص لأن حضور القلب فى الصلاة من حين التكبير الى الاحرام الى السلام عليكم ورحمة الله عجز عنه العظماء من عباد الله ، وليس الانسان العادى فقط .. العظماء من عباد الله غير المعصومين عجزوا ان يصلوا ركعتين لله من حين أبتدائهما الى حين انتهائهما دون ان يخطر فى قلوبهم مطلب آخر غير الله ، فقد عجزوا عن ذلك .

بطبيعة الحال فاننا من باب الأولى ، نحن مثلنا كمثل هذا الشخص الذى يفكر تحت هذه الشجرة ، فهو قد هرب من ضوضاء المدينة وهرب من مطالب العيال ، هرب عن أصوات الناس ولكن ماذا يفعل فى أصوات العصافير ؟ فكلما هداء عادت العصافير الى الشجرة .. رغباتنا الدنيوية ومتطلباتنا الدنيوية توصوص فى أفكارنا طيلة يقظتنا حتى فى وقت الصلاة . فى الحقيقة كلما جاهدنا فى ابعاد الشواغل للاتجاه الى الصلاة ، ما ان تهدأ النفس لحظة حتى تجد ان القلب انصرف الى فكرة أخرى . السبب فى ذلك هو رغبتنا الشديدة فى أمور هذه الدنيا .. وفى متطلبات الحياة . بطبيعة الحال ، هذا الرجل بأية طريقة يستريح من صوت العصافير ؟ اذا اجتث الشجرة عندئذ لا يبقى موضع للعصافير تتجمع عليه ،

الدرس الخامس لفضيلة الشيخ سليمان المدنى

لكن هذا الذى يستطيع ان يجتث شجرة الرغبات والشهوات من أصلها يصير معصوما . على أى حال ان القلب لا يمكنه الا ان يتعلق بموضع الهمة حيثما تنصرف الهمة ينصرف القلب . ولما كان الشىء المرغوب للانسان يكثر الانسان من ترداد ذكره فتكون له عادة حتى فى وقت الصلاة شاء أو كان ملتفتاً أو لم يكن ملتفتا تراوده تلك الافكار وتعلق الهمة الحقيقية بها فينصرف القلب اليها ، فيحتاج الى جهاده من جديد .

أما الجملة الثانية التى ذكرناها وهى التفهم المعنوى . وقد قلنا ان تفهم المعنى بعد حضور القلب ، يعنى أكثر من مجرد حضور القلب . ان يتفهم الانسان معانى ما يقول . فربما يخاطب الانسان غيره بحضور قلب ولكن يخاطبه بكلام لا يفهم معناه فالمطلوب اذن ان يتفهم معانى ما يقول وبطبيعة الحال فى مثل هذا المورد يتفاوت الناس تفاوتا بعيدا فلا يمكن ان يكون كل الناس متساوين فى تفهم معانى القرآن والتسبيحات وغيرها من الفاظ الصلاة ولكن بمعاودة الذهن الى تدبر هذه المعانى ، تتجلى للمصلى شيئا فشيئا ، وبمقدار ما عنده من علم ، معان سامية تكون فى حقيقتها ناهية له عن الفحشاء والمنكر .. لا يمكن ان يتساوى الناس فى التفهم على مستوى واحد والا تضيع قيمة التعلم وقيمة التفقه لو كان كل الناس يمكنهم ان يفهموا معانى الصلاة بمستوى واحد .. ورب ثمة معنى دقيق جدا لو أجهد الانسان عليه نفسه ما حصل له فى غير الصلاة . ولكن ببركة الصلاة يتجلى له المعنى واضحا جليا ..

الجملة الثالثة قلنا تعظيم المعبود ، فانه ما لم تكن الصلاة تعظيما للمعبود فهى مجرد رياضة بدنية كما قلنا .. قيام وقعود وركوع وسجود ، تماما كما يفعل الطلاب فى التمارين التى تعطى لهم فى دروس الرياضة البدنية ، ليس وراءها أكثر من المكسب البدنى . ليس وراءها مكسب روحى أو ذهنى أو أخروى بالمرة وانما يكون للصلاة مكتسبات ذهنية ونفسية ومكتسبات روحية اذا كان المصلى انما صلى تعظيما لمن يصلى له أى تعظيما للمعبود .. وهذا التعظيم فى حقيقته يتوقف على معرفتين لا على معرفة واحدة .. ان يعرف جلال الله سبحانه وتعالى وعظمته وان يعرف انحطاطه هو وتفاهته . اذا عرف انحطاط نفسه وتفاهة نفسه وصغره وعرف عظمة الله سبحانه وتعالى وعرف جلال الله ، عندئذ يمكنه ان يعظم الله بمقدار تلك المعرفتين ، بمقدار ما يتسع له من تلك المعرفتين يمكنه ان يعظم الله سبحانه وتعالى .. وطبعا فى هذا تفاوت كبير بين الناس فلا يعقل ان يكون الناس متساويين فى معرفة الله سبحانه وتعالى ولا يمكن ان يكون الناس متساويين فى معرفة أنفسهم ، ولا تكفى معرفة الله دون معرفة النفس لا تكفى فى هذا المجال ، فمثلا لو ان شخصا يعرف شخصا آخر بأنه شخص عظيم ، ولكنه ايضا يعتقد فى نفسه بأنه ايضا شخص عظيم . يعرف عظمة الشخص الثانى لكن لا يحصل له تعظيم للشخص الثانى ، لانه يرى فى نفسه ايضا معنى من معانى العظمة ، وانما يحصل التعظيم بادراك جلال ذلك الشخص وعظمته مع ملاحظة حقارة نفسه وتفاهتها ما لم يكن ملتفتا ومدركا لهذين الأمرين لا يحصل عنده

تعظيم للمخاطب مطلقا ، وبطبيعة الحال يتفاوت الناس في معرفة الله وتصل أعلاها عند نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعند أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه ، ثم تأتي الدرجات في سائر الأمة ، من أدنى المؤمنين الى أعلاهم بدرجات متفاوتة .

وكذلك معرفة الانسان لنفسه ايضا هي درجات متفاوتة ولذلك يصف الله سبحانه وتعالى الكفار ، فيقول وما قدروا الله حق قدره لأنهم لو قدروه حق قدره ما وقفوا له مثل هذا الموقف وادعوا ان له شركاء وادعوا ان له بنات وان له وسائط ، لا يحتاج الا ان يقول هو انها وسائط وانما هم ينصبون من أنفسهم وسائط بينه وبينهم الى غير ذلك من اصناف الشرك المنتشرة في العالم وما ذلك الا لانهم لم يقدروا الله حق قدره . والذين قدروا الله نوعا من التقدير لكن جهلوا أنفسهم كذلك لا يمكنهم ان يعظموا الله سبحانه وتعالى ، ولكن اذا عرفوا شيئا عن انفسهم عظموه وقدروه بمقدار ما يعرفون من جلاله ومن تفاهة انفسهم .

الجملة الخامسة مهابة الله هي روح الصلاة . والمهابة ايضا تتوقف على ادراك أمرين ، ان يعرف الانسان قدرة الله سبحانه وتعالى وسطوته وشدة عقابه وان يدرك ضعفه هو فاذا أدرك هذين الأمرين لا شك وان تحصل المهابة من الرب في نفسه بمقدار ما يدرك من هذين الأمرين بمقدار ما يدرك من قدرة الله سبحانه وتعالى وبمقدار ما يوقن من اطلاعه على السرائر وبمقدار ما يوقن ما يشاهده من النكال والعذاب الذي يقع في هذه الدنيا والوعود التي توعد الله بها عباده في الآخرة ، ويدرك هو ايضا في نفسه ضعفه عن رد مثل هذا الشيء وعدم امكانية الخروج عن ملكه أو عن سطوته أو ان يقاومه او غير ذلك ، تحصل في نفسه المهابة لأن المهابة في الحقيقة ليست مجرد الخوف ولذلك قلنا ان الخوف لا يكون الا اذا كان عن تعظيم . المهابة هي الخوف الناشيء من التعظيم ، وليست المهابة مجرد الخوف الا اذا استعملت مجازا .. يقولون هاب الوقوع في النار ، هذه ليست هيبة ، وانما هي مجرد خوف .. خاف الوقوع في النار لأن النار ليست معظمة حتى تكون خشيتها هيبة ، فالخشية ليست من عظمتها وانما خوفا ان تدانى الجسم اذا كان الخوف ناشئا عن تعظيم وعن اجلال وعن تبجيل نسميه هيبة .

المعنى السادس او الجملة السادسة الرجاء .. ان يكون المصلي راجيا لرحمة ربه ولعفوه ولمغفرته ، وهذا انما يحصل اذا كان يدرك لطف الله سبحانه وتعالى ويدرك كرمه ويدرك رأفته بعباده ويدرك حلمه على خلقه ويدرك سعة رحمته ، فعندئذ مهما اشتدت الذنوب والمعاصي بينه وبين ربه فانه يرجو عفوه ويرجو رحمته ويرجو مغفرته وأما لو كان لا يدرك الا جهة السطوة وجهة القدرة فعندئذ يحصل عنده اليأس والعياذ بالله ولكن اذا كان يدرك أيضا جهة اللطف والحلم والكرم والعفو والرحمة ، يحصل عنده الرجاء في كرم الله سبحانه وتعالى وفي عفوه ومقدرته .

الجملة السابعة التي ذكرناها في المحاضرة السابقة ، الحياء من الله . والحياة لا يحصل عند المكلف الا اذا أدرك مدى تقصيره بحق الله سبحانه وتعالى . فماذا أدرك انه لا يمكنه الخروج من الحقوق التي لله عليه ولا يمكنه ان يؤدي شكر نعمة واحدة مما أنعم الله عليه ، علم انه من طريق الاولى ان يعجز على ان يؤدي جميع الحقوق او ان يشكره على جميع النعم ، مع انه سبحانه مستحق للشكر على كل نعمة أنعم بها على احد من خلقه ، وليس على المكلف فقط ، وانما هو يستحق ان يشكره المكلف على كل نعمة أنعم الله بها على احد من خلقه ممن كان او يكون او هو كائن ، لأنه هو مستحق الحمد ومستحق الثناء سبحانه وتعالى ، طبعا الانسان يدرك انه لا يتمكن من شكر الله على نفس واحد من أنفاسه ، ولا يتمكن من شكر الله على طرفة عين أو رمشة جفن من أجفانه . فكيف يتمكن من شكره على جميع نعمه ؟ وايضا اذا تفكر في معاصيه وانه لا يستطيع ان يتخلص من هذه المعاصي وانه كلما خرج من ذنب فاما ان يعود الى ذلك الذنب او يقع في غيره ، لا شك انه يخجل من مولاه ، يخجل من هذا المحسن ، لانه يشعر بأنه قابله بالاساءة بدل الاحسان .

هذه الجمل السبع في الحقيقة هي روح الصلاة التي اذا وجدت وجدت الصلاة وبمقدار ما يوجد منها عند المكلف يكون ذلك الجزء من الصلاة مقبولا ، وبمقدار ما يفقد منها المكلف يكون ذلك الجزء من الصلاة غير مقبول .. ولا شك ان ما من احد من المؤمنين الا وعنده هذه المعاني ، ما من احد من المؤمنين الا وهو يقصد احضار قلبه ويحب مناجاة الله . ولكن الشواغل الدنيوية التي لا ينفك عنها تصرف قلبه ، فماذا يفعل هذا المؤمن لا طريق له الا الجهاد .. وان كان الجهاد في الحقيقة يشوش الفكر لكن ليس لنا وسيلة غيرها .. وأيضا ما من مؤمن الا وهو يتفهم معاني ما يقول الله سبحانه وتعالى ، سواء على نحو الاجمال أو على نحو بعض التفصيل ، ولكن اذا زداد المؤمن تأملا وتمعنا في معاني الفاظ الصلاة وطالع ايضا من كتب الفقه وكتب الاخلاق والأدعية وغيرها الواردة عن طريق المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فانه لا شك تتفتح له عيون العلم والحكمة ، خاصة اذا كان مخلصا لله سبحانه وتعالى في هذا الأمر . طبعا كل انسان بقدر ما يحصل من العلم . لأن العلم بحر لا يوزن ، وفوق كل ذي علم عليم .. وكذلك ما من مؤمن الا وهو يعظم الله بقدر ما يدرك من جلال الله سبحانه وتعالى وما من مؤمن الا وهو يهاب الله بقدر ما يدرك ايضا من عظمته ، وما من مؤمن الا وهو يرجو الله ، لأن المؤمن لا ييأس من روح الله ، وكذلك ما من مؤمن الا وهو يشعر في قرارة نفسه بأنه مقصر في حق الله .. هذه أمور موجودة في نفس كل من آمن وانما نذكرها ونحث عليها حتى يزيد الانسان من مجاهدة نفسه على بصيرة وليس على جهل وحتى يعرف ماذا يريد من هذه النفس ان تخضع لأي شيء وأي شيء يريد ان يدرك فيكون على طريق جهاد النفس نوعا ما أكثر بصيرة وأكثر وضوحا مما لو حاول ان يجاهد نفسه لا على منهج معين أو عن طريق خاص ، وصلى الله على محمد وعلى آله الأخيار .